إنقلاب المحافظين الجدد !

28-9-2003

هذا التحول في المواقف ليس من عادة المحافظين الجدد الخلص والمتشددين، لأسباب تتعلق بالممارسة وبالنظرية معا. على المستوى العملي، فإنهم لا يثقون في قدرة الوحدات العسكرية متعددة الجنسيات على ضمان الأمن في العراق ما دام أن القوات الأمريكية نفسها لم تستطع لا الحفاظ على النظام ولا منع "تسرب الإرهابيين" عبر الحدود القريبة

بقلم إدريس الكنبوري

تبعا لتصور المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية الذين خططوا للحرب على العراق منذ سنوات عدة، فإن المسألة تبدو سهلة، حملة عسكرية خاطفة تسقط نظام صدام حسين، والعراقيون يستقبلون الأمريكيين بإرتياح كمحررين، وفي بغداد يتم وضع مخطط "ديمقراطي" ليستنسخ كنموذج في كامل منطقة الشرق الأوسط.

هذه الصورة المصغرة هي بالتأكيد صورة كاريكاتورية، حتى وإن لم يكن المتملقون المتعصبون لإستعمال القوة مغفلين اتجاه الخطاب التبسيطي الذي يحاول القفز على صمت"الواقعيين"، ذلك أن تطورات الأحداث في العراق قد عاكست مخطط المحافظين الجدد، وقدمت براهين جديدة لخصومهم داخل الإدارة الجمهورية، وهؤلاء يوجدون ضمن التيار الداعي إلى سياسة خارجية أكثر تقليدية، موجهة ناحية الدفاع عن المصالح الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية، وعن الديبلوماسيين والعسكريين، وأكثر ميلا إلى مفهوم التدخلات المحدودة والصبورة منهم إلى الخطوات التبشيرية.

حسب"النيويورك تايمز" فإن قدماء إدارة بوش الأب ذهلوا للطريقة التي إنساق بها بوش الإبن وراء مناصري"المفهوم المثالي للنزعة العالمية"، وقبل 20 مارس الماضي وجهوا عدة تحذيرات ضد الحرب التي لا تستند إلى أي مبررات واضحة ومخاطرها المحتملة جد خطيرة، فظهور مقاومة عراقية وتوالي العمليات ضد الأمريكيين وحلفائهم العراقيين، ثم إنهيار ورقة"خارطة الطريق" الخاصة بالنزاع الفلسطيني الإسرائيلي، كلها تقدم لخصوم المحافظين الجدد مبررات أخرى تدعم مواقفهم، ومع إقتراب موعد الإنتخابات الرئاسية فإن الديمقراطيين الذين كانوا صامتين خلال المرحلة الصعبة في الحرب بدأوا يعاتبون جورج بوش وأصدقاءه المحافظين الجدد على "غبائهم" في أحسن الأحوال، وفي أسوئها على عماهم المتطرف.

إن السياسة تخضع بسهولة للواقع أكثر من الإيديولوجيا، وقد أعطى بوش الإنطباع بأنه أخذ الدرس من الصعوبات التي تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية في العراق عندما برر عودته إلى الأمم المتحدة وطالب بقوات أجنبية لمساعدة الجنود الأمريكيين، هذا التحول في المواقف ليس من عادة المحافظين الجدد الخلص والمتشددين، لأسباب تتعلق بالممارسة وبالنظرية معا. على المستوى العملي، فإنهم لا يثقون في قدرة الوحدات العسكرية متعددة الجنسيات على ضمان الأمن في العراق ما دام أن القوات الأمريكية نفسها لم تستطع لا الحفاظ على النظام ولا منع "تسرب الإرهابيين" عبر الحدود القريبة.

أما إعتراضاتهم النظرية فهي مزدوجة: فمن جهة تعني المطالبة بقوات أجنبية بالنسبة إليهم عدم نجاعة السياسة التي ينهجها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الذي كان أشد الداعين إلى جيش صغير مجهز جيدا بأحدث الأسلحة المتطورة، ومن جهة ثانية يعكس هذا التحول في موقف بوش رغبة الإدارة الأمريكية في التحلل من مسؤولياتها بإلقائها على كاهل آخرين، سواء كانوا حلفاء أم عراقيين. لكن نقل هذه المسؤوليات في حد ذاته ليس فيه ما يوجب إنتقاده، لكن السرعة في إنجازها يمكن أن تفسر كدليل أولي على نقض الوعود الذي سوف يسر أعداء أمريكا كما يقول المحافظون الجدد، وهم يرون أن السياسة الأمريكية مهددة بالسقوط مرة ثانية في "أوهام" الواقعية المزعومة.

وقد حاول بول وولفويتز، نائب وزير الدفاع واحد أبرز وجوه تيار المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية، أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب الأمريكي، أن يعقد مصالحة بين سياسة الرئيس والمبادئ المحددة للتيار المحافظ، قائلا:" إن أعداءنا يتمنون أن نستسلم ونتخى عن المقاومة ونعود إلى بيوتنا كما فعلنا في الصومال وبيروت، إنهم يختبرون إرادتنا وإرادة الشعب العراقي وإرادة العالم المتحضر، نحن بحاجة إلى الوسائل الضرورية لتوجيه رسالة إلى العالم وخاصة إلى أعدائنا بأن لدينا العناد اللازم لإنهاء المهمة".

إنهاء المهمة: سيكون ذلك طويل الأمد وغالي الثمن، بل أكثر طولا وتكلفة مما كان يتوقعه المتفائلون في بداية الحملة العسكرية. فحتى وإن لم تكن الحملة مناسبة، فإن تنصيب نظام ديمقراطي في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية قد تطلب سنوات عدة من الإحتلال، ولم يصبح الأمريكيون شعبيين لدى شعب ألمانيا الغربية إلا بعدما وضعوا الجسر الجوي عام 1948 الذي كسر حصار برلين الذي فرضه ستالين، ومع ذلك فقد بقي تاريخ الثامن من مايو 1945 طيلة عقود من الزمن رمزا للسقوط لدى الألمان أكثر مما كان رمزا للتحرير.

يرى المحافظون الجدد أن العراق يشكل أول تحد لما بعد الحرب الباردة مثلما كانت برلين أول ساحة معارك خلال الحرب الباردة، إن ما يحدث في العراق يتجاوز أصلا مصير العراق ما دام الأمر مرتبطا بصورة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم العربي وبقدرتها على نشر القيم الديمقراطية. يتطلب هذا الطموح نوعا من المثابرة كما كان الحال بالنسبة لأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، كما يتطلب الوسائل والتضحيات، فهل يصبح جورج بوش - كما يحب أن يشيع هو بنفسه تلقائيا - الوريث الروحي للرئيس ترومان؟، على النقيض من المحافظين الجدد الذي علقوا عليه جميع أحلامهم، فإن الليبراليين يشككون في ذلك. بعد ستة أشهر من إنطلاق الحرب

إزداد التخوف من الإدارة القاشلة للصراع، وبدأ معارضو الحرب ومؤيدوها على السواء في التعبير عن شكوكهم في قدرة الرئيس جورج بوش على الخروج من الصراع بسلام.